أصداء ثورة التحرير الجزائرية في الشعر العربي بمصر

الدكتور حسن فتح الباب

في المشرق منذ خمسة وعشرين عاماً، كانت بطولات ثوار الجزائر في حرب التحرير تشكل وتراً أساسياً في قيثارتنا نحن طليعة الشعراء العرب في مصر خلال الخمسينات والستينات. كنا ندرك أن أعتى الأسلحة وأدهى الخطط التي توصل إليها الحلف الأطلنطي من تجاربه الاستعمارية عبر مئات السنين في إفريقيا وآسيا لن تستطيع أن تقهر إرادة شعب حل مشكلة الحياة والموت، حين آمن أنه لا حياة بغير حرية ولو في جيل بأسره. وكان هذا الشعب هو الشعب الجزائري الذي قدم على مذبح التحرر واستعادة الأرض والهوية والكرامة ما لم يقدمه شعب آخر في العصر الحديث، لا ينافسه في السبق إلى ذلك الشرف البطولي الإنساني إلا الشعب الفيتنامي.

وكان إدراكنا يمتزج بمشاعر فياضة عاتية من الاعتزاز بأن الشعب الجزائري سوف ينتزع بالدم الغزير الغالي من براثن الذئب الاستعماري وطناً عربياً ليأخذ مكانه من الوطن الكبير الأم، ومكانته في العالم، ومن التطلع بالأمل الكبير إلى آفاق الاختيار الاجتماعي الذي سوف يرتضيه هذا الشعب، والذي لن تستطيع قوة على الأرض أن تنحرف به عن ذلك الطريق لأن شهداءه يسبقون أحياء شهداء عليه.

لكم رفعت ثورة الفاتح من نوفمبر رؤوسنا ونحن نرى شعبها يذهل العالم الصديق والعالم العدو بصموده وتضحياته التي ارتفع بها إلى أقصى ما يرتفع إليه الصفوة من البشر. لقد كان التغيير الثوري في أية بقعة من عالمنا الأفروأسيوي أياً كان الثمن الذي دفعه أبناؤها في سبيل انعتاقهم يمنحنا طاقات خلاقة، ويتيح لنا المزيد من التفاؤل بأن عصرنا هو عصر انكسار الاستعمار وانتصار الشعوب، فكيف بثورة التحرير الجزائرية من حيث عمق آثارها فينا، وهي التي جعلت ما يشبه المستحيل ممكناً بل واقعاً حياً.

معركة التاريخ في مسيرته الحتمية للأمام:

كنا ندرك أيضاً أن معركة الشعب الجزائري ليست معركته وحده ولا هي معركة الوطن العربي في الشمال الغربي الإفريقي فحسب، وإنما هي معركة العالم الثالث كله. معركة الشعوب المستعبدة المنهوبة ضد أعدائها من المستعمرين الفاشيين المستغلين، معركة التاريخ لكي يشق طريقه الحتمي إلى الأمام

وندرك أن الاستعمار في أبشع صوره وهو القائم على الإستيطان واستئصال الجذور لطمس الشخصية الوطنية، ووأد اللغة الأصلية وهي وعاء الثقافة، يحارب في الجزائر بضراوة استجمع فيها كل أدواته وموارده الجهنمية ضد شعب أعزل إلا من درع إيمانه بحقه، وبضعة بنادق صيد ابتدأ بها معركته الصعبة الطويلة، وجثم على أنفاس هذا الشعب يجرعه مرّ سياسته مائة وثلاثين عاماً.

وكنا ندرك كذلك أن هذا الشعب إذ يحارب معركته لا يدافع عن نفسه وحسب، وإنما يدافع عن حقوق الشعوب الأخرى في كل مكان، لأن الحرية لا تتجزأ. ومن أجل ذلك كانت فداحة العبء الذي ألقي على عاتقه، وكانت التضحيات الجسام التي بذلها. فلقد افتدى بمليون ونصف هم سدس الشعب حينئذ عشرات الملايين حوله. فكانت ثورته تعجيلاً باستقلالهم، ذلك هو الشعب المعطاء بلا منّ ولا شكور. نذر نفسه لقضية الحرية مدافعاً عنها إلى حد الاستشهاد.

وما زالت الجزائر وستبقى دائماً قلعة صامدة للحرية والعدالة من منطلق تراثها ووفائها لشهدائها. وسوف يبقى هذا البُعد متجذراً في شجرة الجزائر الشامخة طالما بقيت شعلة الثورة فيها متوهجة واستمرت مناراً للعالم الثالث في كفاحه المستميت للقضاء على الاستعمار والدكتاتورية والعنصرية ولبناء عالم اقتصادي دولي جديد يتسم بالعدل والتكافؤ في العلاقات بين الدول.

لقد ألهمتنا ثورة أول نوفمبر كثيراً من القيم، وعنها تلقينا كثيراً من الدروس، مدرسة ولدت معمدة بالدم الحر الزكي. كيف انصهر أبناء شعب فرّقهم الإستعمار - لكي يسود - طوائف وشيعاً، ومزق بين أصولهم المتلاحمة، انصهروا في بوتقة واحدة كأنهم رجل واحد. ثقة عميقة متبادلة بين القيادة والقاعدة. تصفية للخوّان والمتخاذلين، ثقة بين المدنيين والعسكريين، بين الأجيال المختلفة، بين الرجل والمرأة، استقطاب للقوى الطليعية وتعبئة لأهل الريف مخزن الثورات الشعبية وأصحاب المصلحة الحقيقيين في التغيير.

إن العدو واحد وهو ليس فرنسا المستعمرة وحدها، بل هو الحلف الأطلنطي، موحّداً مدججاً بكل أسلحة الدمار، فلنكن نحن يداً واحدة أيضاً لنقوى على ضرب اليد الآثمة وبتر القدم

السوداء، لقد تمكنوا من البقاء باتحادهم وبقوتهم المادية، ونحن أقدر على دحرهم بإيماننا بالنصر لأننا ندافع عن قضية إنسانية عادلة وسيغلب حقنا باطلهم.

تضحيات البسطاء البسلاء

ما أعظم ما كان يستخوذ علينا من مشاعر الإكبار، ونحن نتلقف ونسمع في لهفة عبر وكالات الأنباء فيما تنقله إلى الصحف وفي الإذاعات من مراحل تطور الحرب التحريرية في الجزائر ومعارك الفدائيين وتضحيات البسطاء من أبناء القرى والأحياء الشعبية، في القصبة وفي سيدي الهواري وعشرات بل مئات غيرها من الأحياء، ورجولة الأطفال الذين شبوا قبل الأوان للقيام بدورهم في المعركة وبطولات المرأة الجزائرية.

ولكن ما أشد ما كانت أحزاننا في الوقت نفسه لمصرع الأبطال المجاهدين من المعروفين أو المغمورين. كانت مشاعر الفخر بانتمائنا إلى وطن كبير يبرز فيه هذا الشعب الذي يحقق بنضاله اليومي أعمالاً أسطورية، والحلم بعالم جديد يبنيه بأياديهم الطيبة الخشنة الفلاحون والعمال الكادحون، مشاعر تمتزج بالأسى لوداع من نحب، دون أن نملك مشاركة الأحياء أو الراحلين إلا من خلال خفقات القلوب بروعة الموت في سبيل الحياة... الموت في سبيل استقلال الوطن وحرية أبنائه كما يمتزج فخرنا بالحقد المقدس على المستعمر الدنيء، ويداه تتخضبان كل دقيقة بدم الأحرار المناضلين، فإذا أعجزوه صب نيران نقمته بنذالة وحشية على الأطفال والشيوخ والنساء، فقصف قرى ومدناً آمنة بقنابل بوارجه وطائراته التي صنعها بعرق الشعوب العاتية.

الغناء للجزائر على وتر أبي تمام:

لقد تحولنا نحن شعراء الطليعة العربية الذين شقوا بأصواتهم المميزة طريق الشعر الحديث إلى شريحة حية في جسد الثورة الجزائرية. تتنفسها شعراء... ونتطلع إلى يوم للنصر نجفف فيه أحزاننا التي كانت تنهمر كلما سفك الإستعمار المزيد من دم أبناء الشعب المقاتل. ونغني أناشيد بطولاته الظافرة التي أردت بسيفها العربي الوحش الأجنبي الشرس.

فها هوذا صلاح عبد الصبور في قصيدته [أبو تمام] سنة ١٩٦١ يتمزق شجىً على الجزائر المناضلة الجريحة ممثلة في وهران، وهو يعزف على وتر شاعرنا القديم حبيب بن أوس الطائي، مجسداً الهوة الفاضلة على درب المقاومة والتحدي بين السيف والقلم قديماً وبين القتال والمؤتمر السياسي حديثاً، كرمزين للفعل الحاسم والقول الأجوف، مبرزاً القيمة النضالية التي تجعل القوة سنداً للحق من خلال التوظيف الفني للمقولة التاريخية المأثورة لتلك المرأة من نساء عمورية التي هتفت تستصرخ النخوة العربية «وامعتصماه» بعد أن أهانها الرومان، فلبّاها المعتصم في بغداد حين خاض حرباً عادلة على المعتدين.

ويأسى الشاعر حين يتلفت حوله فيفتقد في الوطن العربي ذلك الفارس النبيل القديم يحميه في «طبرية» من أنياب الذئب الصهيوني وفي الجزائر من مذابح المستعمر الهمجي، ولا يلقى غير عرب قاعدين حول الموائد المستديرة في المشرق والعدو يخترق أحشاءهم، وغير نواح على الشهداء في المغرب والعدو ينتهش لحم النساء والأطفال، ويقدم الثوار طعاماً للمقصلة:

لم يذهب الى البرية
سيف البغدادي الثائر
شق الصحراء إليه.. لبّاه
حين دعت أخت عربية
وامعتصماه
لكن الصوت الصارخ في طبريه
لبّاه مؤتمران
لكن الصوت الصارخ في وهران
لبته الأحزان
يا سيف المعتصم الثائر
إخلع غمد سحابك، وانزل في قلب الظلمه
شُقّ العتمه
واضرب يمنى في طبريه
واضرب يسرى في وهران

★ ★ ★

يومك لا يسقينا فرحاً
أو يسقيك رضا
التذكار ثقيل حين حملناه
ندماً
والحسرة في وجهك بعد الأعوام... الأعوام
صارت ألماً
ولقاء الجد أبي تمام
عيد للأحزان المورقة الأكمام
عيد تعلات وكلام
عيد دِما
تطلب سقياها، فتجيب ظما

تلك هي قصيدة الشاعر صلاح عبد الصبور التي أوحت إليه بها الثورة العربية عامة وثورة التحرير في الجزائر خاصة، وذلك في سياق خطابه الشاعري لأبي تمام بمناسبة عقد مهرجان في ذكراه. ولا نعثر على غيرها في أعماله العديدة، الأمر الذي قد يثير الدهشة لدى المتلقي، إذ كانت تلك الثورة ينبوعاً متفجراً لكل القيم الإنسانية والثورية التي غنى بها شعراء الخمسينات والستينات.

ولكن الناقد أو الباحث الذي تابع المسيرة الشعرية والفكرية للشاعر عبد الصبور يدرك أن الثورة التي اجتاحت العالم الثالث الذي ينتمي إليه وطننا العربي لم تكن تشكل أحد المحاور التي يدور حولها شعره، وإنما كانت تستقطبه التأملات الذاتية وموقف الفرد المثقف أو المفكر المتميز في صراعه مع المجتمع، على حين يغفل بحكم نزعته الفردية عن قضايا الشعوب ومعارك

تقرير المصير، باستثناء القصائد الوطنية التي كتبها عن مصر الوطن، الناس، والأرض، لا مصر العروبة ولا مصر التقدم الاجتماعي. لقد بدأت تلك الرؤيا الميتافيزقية تتبلور في إنتاجه منذ بهره عالم «اليوت» الضبابي إلى أن أدار ظهره نهائياً للواقع.

الموت في وهران

ولكننا لحسن الحظ نلتقي بشاعر مصري معاصر آخر يمثل الصورة الأخرى المعبرة عن الثورة الجزائرية في نطاق الثورة العربية الأم. ذلك هو الشاعر أحمد حجازي الذي منحه كفاح شعب الجزائر أجمل وأحر أنغامه في بدايات حياته الفنية، وأسهم في ذيوع شهرته في العالم العربي، إننا نلتقي به في قصائده «الموت في وهران» و«القديسة» و«أوراس» شاعراً للقومية العربية التي بعثها عبد الناصر وحمل رسالتها محارباً - تحت رايتها - الاستعمار والرجعية. والشاعر في القصيدة الأولى يرسم صورة نابضة بالسمو الإنساني لشخصية الثائر المناضل الذي يستهين بالموت في سبيل الهدف المقدس.

يقول الشاعر في «الموت في وهران» شادياً على قيثارة الرومانسية الثورية، مغنياً للحرية التي تشترى بالدم وللفدائيين الذين يمثلون أجمل وأنبل ما في الإنسان:

ليسوا فراشات وليست شموع
تلك التي تقحّمتها الجموع
نار.. لهيب النار في قربها.
وقلبها الوحشي حقد وجوع
وهم يغذون الخطى نحوها
كأنما يستقبلون الربيع
يرون في دخانها أغصناً
ويحسبون الجمر زهراً ينيع

* * *

من أبدل المعنى فصار المنى
أن يلتقي صريعهم بالصريع
ومن أضاء للعيون الردى
وأطلع الفجر قبيل الهزيع
يرونه ولا يرون الرجوع
أريد أن أعثر فيهم على
مستدبر النار فلا أستطيع
أكاد أن أهتف في جمعهم
عودوا! وأخشى واحداً أن يطيع
ما أمجد اللحظة في شرفة
من ليل وهران المهيب المنيع
والحارس المرهف إنسانها
الآمر الناهي البصير السميع
القمر اللاهب في كفه
ياقوتة مسقية بالنجيع
والوقع من أقدامه غنوة
أوتارها كل الربى والنجوع
والموت إن يقبل إليه انحنى
مستأذناً، وقال: آن الهجوع!

القديسة

كانت جميلة هي الرمز الحي لثورة نوفمبر الخالدة، فمن خلال هذه البطولة النسائية الفريدة غمرت شمس الجزائر قلوب الأدباء والشعراء والفنانين في مصر، فجاشت قصائد ومسرحيات وملاحم. ومن وحي «جميلة» كتب حجازي قصيدته «القديسة»، مُضَمِّنها ذلك المعنى الذي شاع لدى شعراء الخمسينات حول مفهوم البطولة وهو إنسانية البطل، فهو فرد من جموع الناس وليس خارقة من الخوارق. وقد كان هذا المفهوم يندرج في عداد المحاولات الأولى لإرساء مذهب الواقعية الاشتراكية «في الشعر الحديث» وإن كانت ظلال الرومانسية وما زالت أقوى تأثيراً لدى الكثرة الغالبة من أرباب هذا الشعر:

لم تبتسم جميلة
لم تفترش عشباً بجنب عاشق تحت القمر
لم تعرف اللثا
لم تعرف الغرام إلا خاطراً، حلماً
فقد مضى كل فتى في سنها إلى الجبال
وكلما تذكرت يا سيف
كادت تطير
يا سيف تحت الأرض يمسك المدينة
يا سيف من خمس سنين لم ينم
يحب ترديد اسمها
يسألها عن أمه عن أمها

شخصية جميلة والإسقاط النفسي

وفي نظر الناقد رجاء النقاش أن هذه القصيدة تحمل في مضمونها المطابقة بين الذات والموضوع مثل سائر قصائد الشاعر ذات الموضوعات العامة. فالشعور بالمأساة يبرز واضحاً في كل شعره. إنه يلقي بنظراته في قصيدة «القديسة» إلى الجانب الذاتي الحزين في مأساة البطلة. ذلك الجانب الذي تتطابق فيه «أحزان جميلة» مع أحزانه هو، وأحزان أبناء جيله، هؤلاء الراغبين أشد الرغبة في الحياة، والعاجزين في ذات الوقت عن تحقيق تلك الحياة.

لقد اختارت «جميلة» وهي من أبناء جيل الشاعر طريق التضحية لتصل إلى قمة الجبل... ولكن كم كان في هذا الطريق من متاعب يصورها لنا الشاعر خير تصوير، ويعبر بها عما يحسه في نفسه هو، ولكنه لا يقول لنا أبداً: «توقفوا عن التضحية لأنها طريق شاقة متعبة محزنة» كلا بل يقول شيئاً آخر.. إنه يقول: «اعرفوا قيمة التضحية لأن ثمنها غال».

ومن قصيدة الشاعر وتقويم الناقد نتبين أن جميلة القديسة ليست نموذجاً لبطولة شعب ضحى بأكثر من مليون من الشهداء،

لينتزع حقه في الحرية من غاصبيها المجرمين، ولكنها فتاة كانت تنشد الحب مثل كل بنات حواء، فلما مضى كل فتى في سنها إلى الجبال «ولم يبق منهم واحد تكلّمه» لم يبق إلا أن تشد نحوهم، في كل يوم رحلها، حاملة رسالة من التلال إلى مخابىء الرجال في المدينة!».

ولا شك أن هذه الرؤية الأحادية الجانب مردها إلى أن الشاعر قد خلع مشكلته الذاتية على شخصية البطلة، تلك المشكلة التي تتمثل في الحرمان من الحب والتي يعبر عنها حجازي صراحة في نهاية القصيدة حين لا يجعل الشعب هو المحبوب الذي تضحي من أجله جيلة، ولكنه فتى من سنها هو يا سيف:

جميلة الجميلة
تعلم أن حولها ألف رسول
سيحملون بعدها الرسالة
لكن ترى من غيرها يقول
«أهواك يا سيف»!!

لقد أراد الشاعر أن يقترب من الواقعية - كما أشرنا - فجعل قديسته فتاة تعشق الحياة والحب، ولكنه انزلق إلى الرومانسية المغرقة من خلال نزعته الذاتية، مما يجعل قصيدته هذه ذات الرفرفة الشاعرية المرهفة أضعف مضموناً من قصيدته العمودية «الموت في وهران» ذات الأفكار الصحيحة في التعبير عن قضايا النضال الوطني والإنساني والاستشهاد في سبيل المبدأ.

أما القصيدة الثالثة فهي رائعة الشاعر الحقيقية. إنها «أوراس» ذات النفَس الذي كان يوشك أن يكون ملحمياً لو طوره الشاعر في هذا الاتجاه بدلاً من التركيز على الغنائية. وهو يقدم لها من خلال الدوافع التي حفزته على إبداعها وإرهاصاتها الأولى فيقول:

«قصتي مع أوراس هي قصتي مع الخلاص. بدأت أكتبها إثر لقائي ببضعة شبان من أبناء الجيل الملتهب. كانوا من مغرب الوطن مع آخرين من مشرقه.. كانوا.... يجتمعون في بعض مقاهي القاهرة على الإيمان بالعروبة والعمل لها. وتعرفت عليهم في تلك الفترة الأسطورية التي شهدت تأميم القناة وتأكيد عروبة مصر بلسان عبد الناصر وسياسته... ووجدت في الفكرة العربية روح الشعب، كما وجدت فيها خلاصي الذاتي من قلق فكري عنيف كاد يدفعني إلى الإنحلال والانحراف»

«وحدثني أصدقائي الجدد بحماس وألم وحيوية عن المعارك وعن الناس، وعن القادة وعن أرض الجزائر المعشبة المزهرة المشجرة المحترقة....

وكتبت أول صورة من صور القصيدة، وألقيتها في احتفال أقيم في نادي الصحفيين بالقاهرة احتفالاً بمرور عامين على إعلان الثورة العربية في الجزائر.

كانت القصيدة في أول صورها دفقة عاطفية حادة، لا تزال دعائمها الفكرية الدينية التي جعلتني أتابع في القصيدة وصف إسبانيا بالفردوس المفقود كما كان يدعوها القدماء معتبرين إياها حقاً من حقوق العرب...»

ولم تستحوذ هذه القصيدة الطويلة المتميزة على إعجاب الأستاذ صدقي إسماعيل حين كتب تقدمة لها مما حدا بالشاعر أن يختلف معه في الرأي قائلاً: «إن صدقي يتطلع في شوق إلى أدب ثوري يفعل في النفس ما تفعله أحداث الثورة، ولقد كان بإمكانه أن يصل إلى التعبير عن هذا الشوق بواسطة القصيدة لو أنه منحها جزءاً أكبر من نفسه حتى تمنحه كل نفسها، لكنه توجه إليها شاهراً غضبه على الشعر العربي الحديث الذي لم يستطع حتى الآن أن يعبر عن تجربة الثورة، فكان أن أغلقت دونه بعض أبوابها.

أما الناقد النقاش فإنه يذهب إلى أن قصيدة «أوراس». هي نموذج للنزعة الخطابية الجديدة التي كان يتجه إليها الشاعر بسبب إرتباطه في بعض مواقفه الفنية بالتعبير عن قضايا عامة تتصل اتصالاً مباشراً بالجماهير. وتلك النزعة بهذا المعنى ليست مكروهة أو مرفوضة، فهي لا تضر بالبناء الجديد للقصيدة إذا كان الشاعر قوياً قادراً مؤمناً بما يعبر عنه، ولا تفرض العودة إلى الشكل القديم بما فيه من بدائية، وقصور... إنها نزعة تمليها حاجة من حاجات العصر، إذ يعود الشاعر إلى الاتصال بالجمهور اتصالاً مباشراً، ولكنه لا يفقد نفسه وسط هذا الجمهور، ولا يفقد مواهبه، ولا يفرض على ذاته مشاعر لم تنبع بصدق من هذه الذات... إنها «خَطابية» جديدة تختلف عن الطابع الخطابي للقصيدة العربية.

ومنذ المطلع تجيش رياح الثورة إذ يقول الشاعر:

مدن المغرب
ترتج على قمم الأوراس
زلزال في مدن المغرب
لم يهدأ منذ سنين مائة
لم يترك في جفن أملاً لنعاس
يأتي المولود على صوت الزلزال
ويموت رجال
فيودعهم صوت الزلزال
جيل عن جيل.... أجيال
عاشت ماتت في الزلزال

وهكـذا نرى الشاعر واعياً بالتاريخ الثوري للشعب الجزائري، فليست ثورة نوفمبر إلا الامتداد والحلقة الأخيرة من سلسلة طويلة من الثورات التي خاضها هذا الشعب العربي الأصيل في سبيل افتكاك حريته. فمنذ دنست ترابه سنابك الفرنسيين الغزاة لم يغمض له جفن. وظلت أرضه الطيبة تلد الثائر في أعقاب ثائر حتى تم له الخلاص من بعد مائة وثلاثين عاماً.. إنه الزلزال الذي لم يهدأ أبداً، والأجيال التي عاشت ماتت في الزلزال:

فالصخر هناك له روح تسري
تحت الفجر
تسري في قلب الأحياء

وترن بجوف الأشياء
وتنادي... يا نسري!
يا نسري الغائب، عد للغابة يا نسري
حطم سجنك!
غالب زمنك!
وارجع، فالعش على صدري
خاو، يشتاقك يا نسري
ارجع يا شمس الحرية.

ويستمر صوت الشاعر متدفقاً أخاذ النغم حتى أننا ما زلنا نعجب به رغم مضي ربع قرن على القصيدة. فالصدق قد منحها الحرارة، والرومانسية خلعت عليها رقة وصفاء.

ما أعظمه يومَ الثورة
يوماً نهوى فيه الصدق
نصفو ونرق
فنرى بلداً ورِعاً
الناس به يمشون معاً
يشدون معاً
يبكون معاً
وإذا مات الإنسان به
عرف الإنسان به قبره
ثورة ثورة.

والقصيدة تنضح بعبق التاريخ العربي الناغم.. بمشاهد الانتصارات والانكسارات، وتحفل بالرموز والذكريات وبالأحزان والمسرات والحقائق والأساطير، وكأنها بكائية على مجد العرب الغارب، وبشرى بعودة الفارس الغائب. ويبلغ الشاعر ذروة في المضمون وفي القيمة التعبيرية معاً في المقطع التالي مما يغفر له النثرية والسطحية والنظرة الضيقة أو الخاطئة في مواضع أخرى، فهو يقول:

يا فارسنا الآتي من أوراس
لك مني ملحمة كبرى
يا من ستكون إلى يافا أول عائد
يا من ستخط على قمم الأوراس
اسمَ الشعب الخالد..............
غنوا أشعاري يا أبطال
مات الصف الأول!
اصعد
اصعد لا تتردد
مات الصف الثاني!
اصعد
دسْ فوق وجوه أحبائك
واذكرهم بعد النصر
أعداؤك جبناء كالورق الطائر في الريح
أرأيت إلى ورق غادر شجرة
هل يستوطن شجراً آخر؟
أرأيت إلى أمرأة حرة
هل تهوى إلا صاحبها الأول؟

وإذا كان حجازي قد وقف طويلاً في قصيدته « أوراس » عند مقولة « وامعتصماه » مثلما ألم بها عبد الصبور من قبل، فإنه قد استمر في خطه هذا الايديولوجي الذي يتسع عنده أحياناً ليكون أقرب إلى الموقف الإنساني ويضيق أحياناً أخرى ليظل شوفينياً ضيقاً. أما عبد الصبور فلم يكن أصيلاً في عزفه تلك النغمة، وإنما كان يطل من فوق أكتاف الشعراء القوميين العرب راكباً الموجة الصاعدة، وما لبث أن عاد إلى فرديته، ثم تبنى النزعة الميتافيزيقية تحت قناع الصوفية أو الوجودية متوهماً أنه الطريق إلى العالمية.

أما البعد الثالث للثورة الجزائرية في الشعر العربي المعاصر بمصر، ونعني به التعبير عنها من منظور لا هو وطني ضيق بل ولا قومي محدود مهما كان اتساعه، بل هو عربي إنساني الشمول، فإننا نجده عند شعراء مصريين آخرين غير من ذكرنا يؤمنون أيضاً بالعروبة، ولكن بمفهومها الوحدوي التقدمي الديمقراطي. وينظرون إلى ثورة نوفمبر الخالدة لا بوصفها إحدى الثورات الكبرى في العالم العربي في تاريخه الحديث فحسب، ولكن بوصفها من أكبر ثورات العالم الثالث، وحلقة قوية من سلسلة الثورات الإنسانية خلال جميع العصور.

فإذا كان عبد الصبور يعزف على وتر الوجود الفردي، وحجازي على وتر الوجود القومي، فإن عبد الرحمن الشرقاوي في مسرحيته الشعرية يعزف على وتر الوجود الاجتماعي والوجود الإنساني متداخلين، فالثورة الجزائرية عنده ثورة شعب يهدف إلى القضاء على العنصرية والقهر والاستغلال والاستلاب، وكل ما يكبل الإنسان ويحرمه حقه في الحياة الحرة الكريمة، ويفتح له الطريق للإبداع وإثراء الحضارة. ومن ثم فإنه في شعره يتأمل في الحاضر ويتطلع إلى المستقبل. فإذا ذكر الماضي فمن خلال عناصره التراثية المضيئة دون أن يتجمد أو يتوقف عنده.. إنها نظرة واقعية مستقبلية لا نظرة سلفية متزمتة. وهذه النظرة تنطلق من فكر عربي تقدمي يؤمن بقدرة الإنسان على تحدي المستحيل متى استجمع إرادته وعبأ طاقاته في إطار عمل ثوري شعبي.

ويعبر أحد النقاد عن هذا المفهوم الذي تبلور في مسرحية « مأساة جميلة » للشرقاوي بقوله: « البطولة الفردية كما نعلم كثيراً ما تتخذ رمزاً لبطولة الجماهير. فاسم جميلة قد غدا رمزاً لبطولة الشعب الجزائري، لا أقصد جميلة بوحريد بالذات أو بوعزة أو بوباشا، ولكن أية جميلة، جميلة عذراء الجزائر التي ستمشي روحها بين جبال أوراس كما كانت تمشي روح عذراء أورليان أقصد جان دارك، على مروج فرنسا وبين غاباتها ».

ويستطرد هذا الناقد قائلاً: « إن القيمة الحقيقية في « مأساة جميلة » كامنة في شعرها من حيث هو تجربة إيجابية لتدميث الشعر العربي ووضعه على أساس جديد في الشعور والتعبير. وهذه التجربة ليست إلا امتداداً للمحاولة الأولى التي قام بها عبد الرحمن الشرقاوي منذ « نيف وعشر سنين » في قصيدته المشهورة « من أب مصري إلى الرئيس ترومان »، وتناول فيها مشكلة.

التفجيرات الذرية ومشكلة السلام العالمي والمصير الإنساني ».
وتعميقاً لمفهوم البعد الثالث لثورة التحرير الجزائرية في قصائد الشعراء المصريين أستشهد هنا بقصائد أو من قصائد كتبتها ونشرتها بالآداب ببيروت في أواخر الخمسينات مستوحياً تلك الثورة الخالدة. تقول قصيدتي. العالم والحرية – أغنية من الجزائر »

الفلك الدوار يغني
أشواق الإنسان النائي
ووليد قمري يرقى
آفاق الأرض العذراء
يا للفرحة تحتضن الكون
أنفاساً تتهدّج
تاريخاً يتوهج
لم تغمض في ليلته عين
لم يسكن في دوحته طير
فليصعد فوق القمة فجر
وليتدفق نهر
الكون جميل، ما أحلى
لكنْ عشاق الحرية
ما زالوا يغشون الظلمات
ما زالوا رواد صراع
لم تدفن منهم أموات
لم تعزف مرثية وداع
العالم ملك البشريه
لكنّ الحريه
ما زالت أمنيّه!!

إن عطاء الثورة النموذج يستمر ويتواصل الإيحاء. ولكن القلب يستشعر الأسى للتناقض بين شعار الحرية الذي يرفعه العالم الرأسمالي وبين ممارسات هذا العالم البشع... بين وصول الإنسان في الدول الكبرى بفضل التقدم العلمي التكنولوجي إلى عصر الفضاء، وبين بقاء الإنسان في كثير من دول عالمنا الثالث ضحية الاستغلال مقهوراً منبوذاً مقضياً عليه بأن يحارب في سبيل استرداد حريته المغتصبة.
ويحرق المستعمرون الفرنسيون رجـلاً انضم إلى صفوف الثوار... يحرقونه حياً.. أولئك الذين يتشدقون بأنهم أرباب مشاعل المدنية، وقد جاءوا إلى الجزائر يحملون رسالة مقدسة هي رسالة التنوير والتحضير... وأنهم أحفاد الشعب الذي قدم للعالم ثورة من أعظم الثورات في تاريخ القرون الماضية. ويتجاهلون أنهم قتلة الحرية وسفاكو دماء المطالبين بها. ذلك هو صدى الثورة الجزائرية في قصيدة كتبتها سنة ١٩٥٨ بعنوان « شهيد من الجزائر » كتبتها في مصرع عبد الحميد بوصوف :

« بوصوف » يرتضى قرارة العدم
يضرم في جبينه النبيل نار قاتله
وليس غير كلمتين قبلها يغيب:
يا شعب ضمّني إليك
الموت في محارق الرماد
ولا يغشّى العار جبهتك
يا شعب إن الملك والحياة لك

لن تستطيع أن تموت
وفي ذُرَى « وهران » كل أم
تسقي صغارها الظماء
دماء زوجها الشهيد
والشمس في صباحها تعود
لتنضج الثمار في الوهاد
والطفل يهجر المهاد
وحفنة من الرماد المحترق
في كفه يرمي بها الجناه
وكلما تخضّب الأفق
عادت إلى رفاتك الحياة
« بوصوف » يا مخلداً إلى الأبد

العربي بن مهيدي الفدائي الخالد

لم أكن قد عرفت « وهران » حين تغنيت ببطولة نسائها ورجالها في الخمسينات.. ولكن الأيام تدور لأجدني بعد عشرين عاماً في قلب هذه المدينة الجميلة ذات التاريخ الحافل بنضال شعبها، أجدني لاجئاً إليها بفكري وقلمي من « لعبة الجمر أو التمر » فيتجدد في نفسي إعصار الثورة الجزائرية فأستلهمها من جديد أشعاري في المنفى دفاعا عن وطني وعن شعبي. وكانت الشرارة الأولى حينما ضللت طريقي في أولى خطواتي بالمدينة. وفجأة رأيتني أمام لافتة صغيرة زرقاء تحمل عنواناً لشارع كبير: « العربي بن مهيدي ».
وتنثال ذكريات الثورة الجزائرية وشهيدها العظيم، فأنسى مقصدي، وأرى ابن مهيدي يتجول معي في الطريق وقد تحول ورداً نضيراً في وجنات الأطفال الجزائريين وأزهاراً ندية فواحة في الشرفات. فلقد ضحى البطل ورفاقه من أجل أن يأتي هذا اليوم... مدينة عامرة زاهية عادت لأهلها... حركة تضج بالشوارع ومصابيح على كل طريق.. وأنزوي في مقهى صغير لأكتب من وحي الثورة والبطولة الجزائرية:

عشرون عاماً... ثم عدت
طوّفت في الآفاق ما ارتويت
مررت في المرسى ضللت
أنقذني الدليل
صحوت في السوق التي تزاحمت:
لا تبتعد
هناك عند المنحنى مفتتح الطريق
تأتلق الحروف والورود باسمِهِ
على الجدار

تغدو إشارة المرور ألف نبعٍ
أخضرِ القرار
العربي بن مهيدي

ملحمة الأوراس والفارس الذي ترجل

ويبقى الأوراس في نفسي كما كان رمز الثورة وعلمها. لكم كان ذكره يملؤنا فخاراً، ويغمرنا ثقة بقدرة الثورات الشعبية ومددها الذي لا يغيض. أخاطب جبال الأوراس بعد أن تحققت أمنيتي في رؤية جزائر الثورة، وإن كنت قد جئتها بعد أن نزل الظلام على وطني:

ما زلتِ كلما تطوّق الإضاءة
تشتغلين بالندى وبالرؤى
ما زال راعيك يغنّي.. والبراءه
تلبس درع الموت حينما يثور
تشتعلين.. حين حدثتكِ
في ذاك المساء
كنت هارباً من شجني
كنت رفيق الفقراء
كنت ربيب الفقراء
غدوت قاتلاً
دماً ملطخاً قميص الأنبياء
محاصراً.. مطارداً في وطني
من اللصوص الأشقياء

وتمتزج في مشاعري وفكري رموز الثورتين المصرية والجزائرية وتتداعى الذكريات... وما يلبث طيف الدم أن يغشي عيني:

ألقاك من بعد الشتات
قلعتنا تلقف إعصار الشمال
ورد الجراح اليانعات
فجر الليالي العاصفات
صوت الجلود تحترق
صوت الرقاب تنعتق
صوت القيود تنسحق
صحوتنا إذا انطوى شهاب
مولدنا الجديد كلما هوى شهيد
....

إن التاريخ لا يعيد نفسه بالصورة نفسها، ولكن قوافل الأبطال لا تنقطع.... ويتساقط الشهداء ليولد الإنسان الجديد:

صوت دليلي السيف والوردة
والثائر الراعي الجبل
صوت دليلي العربي بن مهيدي
مدينتي كان لها يوماً مهيدي....
انفجرت
كل الجراحات على الورد الذي ينزف....
ورد النيل
.. آه.. تنزف الأمطار في كل العيون
صمت المواويل صلاه
صوت الدم الجاري زكّاه
كان لنا يوماً مهيدي... كل جيل
يخرج ألف مرةٍ
يسقي جواده ويستقي لنا
تشتاقه السنبلة الوسنى
على صدر الحقول
يشتاقه الليل الطويل
كان اسمه أحمد عرابي
كان حساماً عربياً لوحته الشمسُ
.. والترعة السمراءُ
.. والصحراء
.. لا يعرف إلا فأسَهُ
أو سيفه
كان حبيب الفقراء

ويدفن البطل هواري بومدين، الفارس الذي ترجل، في مقبرة « العالية » رفيقاً لشهداء ثورة التحرير. قرير العين إذ يشهد قبل المغيب قباب المصانع والمعاهد والقرى الاشتراكية تتعالى في الأفق. وأشهد بعيني كيف يكون عرس الشهيد في زفافه إلى الخلود:

اليوم عبد الناصر الأمين مات مرتينِ
كي نعيشه ولا تموت ثورته
يستيقظ الآن جميع الشهداءِ
سيف صلاح الدين لم يعد لغمدِهِ
منتصراً عاد.. وكان الأمس في الموكبِ
.. إني قد رأيت وجهه الصبوحَ
.. يخفي دمعتينِ في الرداءِ
.. ثم يحمل ابنَهُ
مَن ذلك الطور الذي يأتزر الرياحَ
.. قادماً من العرينِ
.. من « معسكر » التي أودعها
أغاني الرعيانِ
.. صوتَ الفقراء المردة؟
هل دقت الساعة وانشق القمرْ؟

وحين يموت الشاعر الكاتب الجزائري مالك حداد دون أن أراه أو أودعه وأنا أعيش في بلده تتدافع في وجداني رياح الخمسينات والستينات في عصر المد الثوري للعالم الثالث من ثورة ٢٣ يوليو المصرية، إلى ثورة نوفمبر الجزائرية.. ذاك عصر الانتصارات، واليوم تدهمنا كلاب الإمبريالية... أرثي مالك حداد شاعر ثورة التحرير في الجزائر الذي كان يقول: « لا تلمني يا صديقي إذا لم يطربك صداحي.. فأنا أرطن.. لا أتكلم.. لو كنت أعرف الغناء لتكلمت العربية.. إن اللغة الفرنسية هي المنفى الذي أعيشه وأعيش فيه ».

أرثي الكاتب الوطني الإنساني العظيم فأقول في وهران:
أبكيك صفيّ الثوار الغرباء
أبكي هذا الفجر سيمحوه الليل
أتذكر أنك تأتينا
فوق صحائفك الخضراء هلالاً
كل مساء فتضيء الظلمات
أتذكر فيجف الدمع
مالك هل تسمعني؟
وهران تردد أشعارك حرفاً عربياً
تفتح كل صباح كراستها
وتراك وتقرأ لك وتغني
وتقاتل كي تحيي لغة أبي ذر وعلي
لم تصبح مالك منفياً في كلمات الغرباء
صرت نبياً عربياً موطنه الآفاق الزرقاء
طيفاً يسكن أبياتاً بيضاء لأولاد الشهداء

ثورة الجزائر في القصيدة العمودية بمصر

اقترنت القصيدة العربية الحديثة في تشكيلها الجديد نشأة وتطوراً بحركة التحرر والتطور الاجتماعي التي طبقت عالم اليوم في أعقاب الحرب العالمية الثانية. ومن ثم وقف الشعراء الجدد دائماً موقف الريادة من تلك الحركة. وكانت القضايا الوطنية والثورية والعالمية مجالاً خصباً لإبداعهم، وتميزوا عن الشعراء التقليديين بصفة عامة بالتزامهم بالدفاع عن الثورات الشعبية، وعن حق الشعوب في تقرير مصيرها، وحقها في العدل والتقدم الاجتماعي. ومن ثم كانت ثورة التحرير الجزائرية وتراً أساسياً - كما بينا - في القيثارة التي عزف عليها رواد الشعر الجديد في مصر.

ومع ذلك فإن الشعراء المصريين المحافظين وأعني بهم أصحاب القصيدة العمودية قد سايروا شعراء القصيدة الجديدة في بعض المضوعات التي تفردت بها وفي مقدمتها الموقف الملتزم من قضايا التحرر والثورة حتى لا يتهموا بالتخلف عن الركب فكانت لبعضهم إسهامات في هذا الميدان على اختلاف في المستوى بين شاعر وآخر من حيث الموهبة والقدرة على العطاء. وكان الأسلوب السائد في هذا المقام امتداداً لأسلوب القصائد التراثية التي أطلق عليها العرب «الموثبات»، فكانت أشعارهم تفوح منها رائحة القدم من حيث النسيج اللغوي والصور والإيقاع بل المحتوى الفكري أيضاً للكثرة الغالبة منها. فهي أشبه في جملتها ومن حيث معانيها المطروقة بالتقارير وبالمقالات الصحفية، ومن ثم تفتقد العنصر الأساسي وهو الرؤيا الشعرية.

ونكتفي في هذا الصدد بالاستشهاد ببعض أبيات من قصيدة «فدائية» للشاعر صالح جودت، وقد ألقاها في مؤتمر الأدباء العرب العاشر ومهرجان الشعر الثاني عشر اللذين عقدا في الجزائر في سنة ١٩٧٥. وتتسم هذه القصيدة بالمزيج بين الغزل ذلك الغرض التقليدي وبين تمجيد الثورة، إذ يستهلها الشاعر بقوله:

لقيتها ساعة العشية
حسناء كالزهرة النديه
شبابها فيه كبرياء
وروحها ملؤها حميه
تمشي على السين في اعتداد
كصخرة صلبة عتيه

ويغلب على القصيدة الطابع الغنائي والمعاني التقليدية حيناً والمعتسفة حيناً آخر، وأغلب الظن أنها كتبت لتلقى بمناسبة عقد مؤتمر الأدباء في بلد الثورة الكبرى ووطن الفدائيين الشهداء. فقد نُظمت من مجموعة من المعلومات المتداولة في هذا الموضوع، واستطاع الشاعر من خلال الصنعة الحاذقة أن يشيع فيها جواً شاعرياً مما عرف به صالح جودت في قصائده الرقيقة. فهو يقول على لسان الفدائية الجزائرية التي التقى بها على نهر السين:

أمشي بباريس لا أبالي
بكل ما يشغل البريه
ما همني أن يقال إني
في ميعتي لست عاطفيه
فلي هنا ألف ألف ثار
أعيش من أجلها صديه
وخمرتي من دم الأعادي
وفرحتي صوت بندقيه
لم يعترف بالهوى فؤادي
إلا هوى تربتي الزكيه
من حضنها نام ألف ألف
من أهل بيتي ومن ذويه
لا وقت للحب في بلادي
وذاك أني جزائريه

انعكاس خصائص ثورة ٢٣ يوليو على الشعر العربي بمصر

تلك جولة عابرة في آفاق الشعر العربي الذي استلهم في مصر ثورة نوفمبر الكبرى، متأثراً بها، مؤثراً في جماهير الشعر بمثلها الوطنية والقومية والإنسانية، مواكباً لها في إبان الصراع الدموي بينها وبين أعدائها ثم في مرحلة انتصارها، متخذاً منها سلاحاً يحارب به أعداء الإنسان من المستعمرين والمستغلين والخونة، ومثالاً يحتذي في الأسلوب الوحيد لتحرير الشعوب وهو الثورة المسلحة.

ولو أننا أجرينا دراسة إحصائية تحليلية للشعر العربي الذي تناول بمصر قضايا الحرية والعدالة لوجدنا أكثره يدور حول القضية الفلسطينية، تليها في ذلك القضية الجزائرية. والدلالة التاريخية لهذه الظاهرة لا تخفى، إذ كانت الخمسينات

والستينات من هذا القرن تمثل عصر الثورات في العالم الثالث عامة وفي العالم العربي خاصة، ومرحلة الكفاح المتنامي ضد قوى الاستعمار القديم والجديد والصهيونية والتفرقة العنصرية. وكان في مصر نظام وطني تقدمي أفرزته ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ بقيادة البطل جمال عبد الناصر، الذي احتضنت مصر في عهده وساندت معنوياً ومادياً ثورة الجزائر وسائر حركات التحرر في الوطن العربي وأفريقيا بحكم إيمانها بحق الشعوب عامة والعربية خاصة في الحرية والعدالة الاجتماعية والوحدة. فكانت تلك الثورة المصرية هي الأم الحاضنة لثورات الجماهير العربية وانتفاضاتها في المشرق والمغرب من أجل القضاء على التخلف والاستعمار والسير في طريق التنمية الاجتماعية والاقتصادية وتوكيد أسس التحرر والوحدة، واستمرار الكفاح في سبيل انتزاع حقوق الشعب الفلسطيني السليبة وحق تقرير المصير لسائر الشعوب المناضلة، والسير نحو التقدم والإسهام في الثقافة والحضارة الإنسانية المعاصرة. ولقد انعكست هذه الخصائص في الإنتاج الذي أبدعه الشعراء المصريون وغيرهم من الشعراء العرب.

وإذا كانت الأمة العربية قد ناضلت جنباً إلى جنب مع الجزائر حتى انتزعت استقلالها بتضحيات أبنائها، فقد ناضلت الجزائر أيضاً جنباً إلى جنب مع الأمة العربية كلها، وما زالت تناضل في إصرار وثبات، جنباً إلى جنب مع كل قوى التحرر الوطني في العالم ضد الاستعمار والاستعمار الجديد وعملائهما، ومن أجل التنمية، ودفاعاً عن الحرية في كل مكان، وحفاظاً على قيم العدالة والسلام (★)

وهران (الجزائر)

(★) نص المحاضرة التي ألقاها الشاعر مؤخراً في الملتقى الذي عقدته جامعة وهران بالجزائر حول موضوع الثورة الجزائرية في الأدب العربي المعاصر وشارك فيه باحثون وشعراء من بعض البلاد العربية.